ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الأوضـاع الفكريّة والعلميّة في تلمسان العثمانيّة من خلال مُدَوَّنَاتِ الرّحالة والجغرافيّين الوافدين إليها ما بين (٩٢٥هـ/ ١٥١٧م ـ ١٢٣٨هـ/١٨٢٣م)

محمد بومدين
أستاذ التعليم المتوسط
باحث دكتوراه في تاريخ المغرب العربي الحديث
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان – الجمهورية الجزائرية

مُلَخَّص

يرمي هذا المقال إلى فتح نافذة من تاريخ تلمسان العلميّ والفكريّ خلال العهد العثماني، كما تَبَنّتهُ وأظهرته مختلف زيارات الرّحالة والجغرافيّين الّذين عاصروا تلك الفترة ودوّنوا حوادثها بانطباعات تكتسي أهميّة بالغة في الحقل الثقافي للمدينة إذ ذاك، والّتي تُمكِّننا من أن نَستَشِف ونَستكشِف تمظهرات السّياقات الزمنيّة والمكانيّة، العلميّة والفكريّة منها، في خِضِمِّ المستجدات الّتي وَردت على المنطقة، ومدى تداعياتها على كل مشتغل بالعلم، وتدليل ذلك الركود العميق الّذي كاد أن يكون توقفًا كاملاً وغيرَ مَألُوف لأجهزتها العلميّة، لولا محاولات بعض العلماء التلمسانيّين الّذين تمّت الإشارة إليهم في تلك المدوّنات الرّحليّة ومساعيهم الدؤوبة في استنقاد ما يمكن استنقاده في تلمسان العثمانية التي وعلى الرّغم من استفادتها هي الأخرى من الرقي الثقافي المؤقّت الّذي بدأت بَوُّوح مظاهره تبرز في العقد الثاني من القرن (١٢هـ/١٨م)، بمبادرة شخصيّة من قبل الباي محمد بن عثمان اتجاه صُروح العلم وأَوكَارِهِ في بايلك الغرب، والّذي يمكن اعتباره هُنَا بحق، شكلاً من أشكال المساعي ذات صيغة المشاريع الحضاريّة المعبّرة عن صَحْوَة ونهضة علميّة ملفتة للنظر في الجزائر العثمانيّة؛ إلاّ أنّ أعراض المرض كانت قد أنْهَكَت جسد تلمسان وقامات النُّخبة بها، وأصابتها في هذا المضمار بالشَّللِ، عندما مسَّ المدينة فيمَن مَسَّها نصيب من سوء الأحوال وعدم الاهتمام، الّذي أجمعت عليه انطباعات جل الرحالة الّذين وطأت أقدامهم المدينة المذكورة خلال الفترة الحديثة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٣	فبراير	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٢٦	فبراير	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:
تلمسان؛ العهد العثماني؛ الرِّحلات؛ العلماء؛ المؤسسات العلمية؛ بايلك الغرب

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.150607

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
محمد بومدين، "الأوضـاع الفكريّة والعلميّة في تلمسان العثمانيّة من خلال مُدَوَّنَاتِ الرّحالة والجغرافيّين الوافدين إليها ما بين (٩٢٥هـ/ ١٥١٧م ـ ١٢٣٨هـ/١٨٢٣م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد السابع والأربعون؛ مارس ٢٠٢٠. ص ١٣٦ – ١٥٠.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: boumedinem999@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَوريةُ كَان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

أضحت تلمسان خلال العصر الحديث محطة أنظار، وغرضا وغاية للعديد من الرحالة الّذين وفدوا إليها وأعجبوا بمنشآتها المعماريّة، الدينيّة والعلميّة منها خاصة، راصدين بالتّدوين الصريح تارة والمُضمَّن له تارة أخرى ما شاهدوه، بل وفي بعض الأحيان ارتقوا إلى المشاركة والمساهمة فيه كصناع للحوادث العلميّة والفكريّة بالمدينة، وهو ما انعكس على ما صوَّروه وأظهروه في سطور مدوّناتهم الّتي وَسَمَهَا التباين والاختلاف في مضمون المعلومات المقدمة وشكلها من قبلهم، تبعًا لثقافة الرَّحَّالة والهواجس المُسَيِّرة والصاقلة لهدف الرحلة. تلك هي المميّزات البارزة عامة في محتوى هذا النوع الهام من المصادر الّتي ساهمت بالتّركيز على ذكر أخبار المدن، وبدرجة أقل ما شهدته أوضاعها الثقافية في الجزائر العثمانيّة، ومُبرزة من ناحية أخرى لِمَا سَكَتَت عنه الكثير من المصادر الأخرى الّتي أهملت على ما يبدو مآل مدينة تلمسان خلال هذه الفترة، وما جدَّ عليها على مستوى أجهزتها الثقافية.

وتأسيسًا عليه؛ آثرنا التطرق لهذا المقاربات الإشكاليّة، بمعالجتها واقتحامها منهجيًا ومعرفيًا من باب أدب الرِّحلات والرِّحلات الجغرافيّة، الّتي تعتبر من بين الطروحات المفيدة في إماطة الأستار عن الكثير من المتغيّرات الفكريّة والعلميّة الجديرة بالبحث والتقصي، على شاكلة ما توقفنا عليه بالنظرة الفاحصة والرؤية الإستنباطية لشِعابِ ما لقطته أعينهم وحتَّى حدوثهم من نسمات عليلة أو عواصف هوجاء، كانت قد هَبَّت على تلمسان وغيرت أجواءها الفكريّة، ووُجْهَتها ودُرُوبها ونَمَطِيَة ومفعول مؤسساتها العلميّة، من كتاتيب، ومساجد، وزوايا، ومدارس، وأعلامها المُسَيرَةِ لَهَا. ما شكل عندنا بعد ذلك، حدًا فاصلاً ومسترسلاً بين الطور الأول من القرن (١٠هـ/١٦م)، الّذي عرف نوعا من الحركيّة الثقافية الرّاقية الّتي كانت تحصيل حاصل لثمرة عصر القوة والأُبْهَة العلميّة لغابر زمن دولة بني عبد الواد، والعقود الأخيرة من المائة العاشرة وطيلة رديفَتيهَا الحادية والثانية وحتَّى الثالثة عشر، الّتي جُبِلَت نفسها بفعل فاعل على الركود والانطواء، وأمست سلعتها العلمية على غرارِ مُنتِجِيهَا نادرة ومتكدسة، حينما فقدنا فيها الكثير مِمَّا يمكن إبرازه بالبحث، أو الاعتداد به على مستوى واقع الإشكالات المتّجهة لنفض الغبار عن الأحوال الفكريّة والعلميّة وتفاعلات أهلها التلمسانيّين وغيرهم خلال هذه الفترة، لولا تلك الإشارات القليلة القيمة الّتي نبعت مِن عندِ مَنْ شدَّ الرِّحال إلى تلمسان وعايش حكم الأتراك.

هو إذن ما تتبعناه بالسرد التحليلي الوصفي، مركزين على تركيب ما تفرق منه وما تبعثر، وما أُطنِب فيه أو قل في هذه المصادر الرِحلية وانطباعات أصحابها، من خلال لململة تلك الشذرات، وتقصيها وتَأمّلِها، وبعثها من جديد في حلة تتسم بالتّكامل والترابط المعرفيّ والمنهجيّ، لتكون الخطوط العريضة الّتي سنحاول عرضها في هذا المقصد الّذي لم يُتَطَرَّق له بالبحث والدرس الجاد أحد من الباحثين من قبل، فلا ريب إذا ما جزمنا هنا القول على إن هذه الدراسة لتعد إضافة علميّة رصينة في حقل التاريخ الحديث للجزائر عامة، وبايلك الغرب على وجه التحديد. مقابل ذلك؛ يُتَوَقع ويُفترَض من هذا المسعى على ضوء القراءة الأوليّة لمادته المتوفرة لدينا، أن ما قيّده جلّ الرحالة عن الأحوال الفكريّة والعلميّة في تلمسان العثمانيّة، يمكننا من أن نغطّي على الأقل النقاط الأساسيّة لأنشطة المؤسسات التعليميّة ورِجالاتها، ومدى تأثير أصحاب السّلطة والقرار على ازدهارها أو تقهقرها.

كما يمكن إبراز أهمية الدراسة هذه في أنّ تلمسان واحدة من الحواضر الّتي نالت نصيبًا وافرًا من ثنايا كتب الرحَّالَة عبر مختلف المراحل التاريخيّة، باعتبارها نقطة اتصال بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب، خاصة عندما نشأت كمحطة علميّة بارزة في العصور الوسطى، ما لاحظناه يلعب دورًا في كل ما كان من توثيق للأواصر الفكريّة بكامل العُدوَة[١] وخارجها آنذاك، ما جعل أصحاب العلم يتردّدون عليها راكبين هِمَّة مشاق التّرحال، وناشطين في مراكزها التعليمية وبإهتبال حتَّى أنصاف القرن (١٠هـ/١٦م)، هذا القرن الّذي دَبَّ في الدولة الزيانية خلاله الضعف وانتشر في ركائزها، وبدأ الخراب يبسط بأدواته عليها وهي على أعتاب نهاياتها. حتى قد يقول قائل، إن الحالة العلميّة والفكريّة قد أخذت المنحى المذكور سلفًا، ولكن من عجيب المفارقات ومن غرائب مجريات الأحداث، أنّ الحركة العلميّة فيه كانت نشطة جدًا[٢]، جرّاء تظافر جملة من الأسباب وفَّرَها ملوك الدولة الزيانية المتأخرين[٣]، وعملوا من خلالها على تنشيط الحركة الفكريّة، بإنشائهم ورعايتهم للمؤسسات العلميّة إلى حين، رغم تنافسهم على السلطة واشتغالهم بالحروب ومواجهة الفتن الداخليّة[٤].

وفي ظل هذه الظروف وما بين دَفَّتَيْهَا، وَلَجَ إلى تلمسان رحالتين مميّزين، سجّلا نصوصًا متعلقة بالجوانب الفكريّة والعلميّة، عَرِيَت منها الكثير من التآليف الرِّحلية وغير الرِّحلية، لاسيما وأنّها وقعت وأتت في ظرفية دولة قَلِقَة، أخذت فيها معالم الثقافة وأدواتها في المنطقة تشهد مخاض لنُفُوقِ

منقطع النظير كما أسلفنا سابقا، وفيما يلي إبَانَة له فيما جاء في "وصف إفريقيا" للعالم الجغرافي الحسن الوزان، وكتاب "إفريقيا" للرحالة الإسباني لويس دل مارمول كاربخال.

أولاً: نشاط المؤسسات العلميّة في تلمسان خلال القرن ١٠هـ/١٦م، كما رَصَدَهَا كل من الرحالتين الحسن الوزّان، ولويس دل مارمول كاربخال

زَوَّدَنَا أبو علي الحسن بن محمد الوزان (كان حيًا سنة ٩٣٥هـ/١٥٢٨م)، الّذي عاش خلال النصف الأول من القرن (١٠هـ/١٦م)[٥]، وهو يؤرّخ بالمشاهدة المباشرة بِوصفٍ عن تلمسان، أظهر من خلاله تمايزًا وانفرادًا على أقرانه في الزّمان والمكان، حينما كان مارًا عليها متوجها للأستانة بأمر سلطاني، وفي إطار مهمة دبلوماسية على ما يظهر[٦]، ليبرز في هذا الصدد، وهو يسوق خبرها، مخصصا للمؤسسات العلميّة وعمارتها حيزًا معتبرًا من حديثه عمّا نُسِجَت عليه من تزيين جميل، خاصة لما كان ميله للعلم قد أظهر منه في هذا الضرب التأريخي، الجغرافي العالم الحاذق[٧]، فيما أورده، ممَّا شاهده على ما حَوَتهُ المدينة من: "(...) مساجد عديدة جميلة صينة، لها أئمة وخطباء، وخمس مدارس حسنة، جيدة البناء مزدانة بالفسيفساء، وغيرها من الأعمال الفنية، شيد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس(...)"[٨].

بيد لا يَمُدنا الوزان بمعطيات يطلعنا من خلالها عن الحياة الفكريّة بتلك المدارس، في مستوياتها، ونظمها، وأساليبها التعليميّة، ولو أنّه في زاوية أخرى من تأليفه، وجدناه يجنح بصياغة دقيقة لمعلومات تحيل إلى مستوى ثقافي عميق، مرتبطة بطبيعة العلوم الملقّنة فيها ونوعيتها، الّتي قدم لها بالقول: "(...) وكثير من الطلبة والأساتذة في مختلف المواد، سواء في الشريعة أو العلوم الطبيعية(...)"[٩]، وعن حالة الطلبة المادية ومداخيلهم المعاشية، يقول: "(...) وتتكفل المدارس الخمس بمعاشهم بكيفية منتظمة(...)"[١٠].

وعليه، ولو يُستَشَف من كلام الوزان أن المرتبات تلك وضعت بطريقة منظمة، ذلك لا يعني أن وضعيّة الطلبة كانت ميسورة الحال، إلا إذا وصلوا للأعلى الدرجات العلميّة فيما بعد، وهو ما سَوَّدَّ له بالخَطّ في معرض حديثه عن طبقات المجتمع التلمسانيّ في تلك الفترة، وفي شأن ذلك عنده: "(...) والطلبة أفقر الناس لأنهم يعيشون عيشة بئيسة في مدارسهم، لكن عندما يرتقون إلى درجة فقهاء يعين كل واحد منهم أستاذا أو عدلا أو إمام (...)"[١١]. وبالماحة تستدعي الاستنباط لإيرادات المؤسسات الثقافية ومصادرها، ما كان في انطباعاته المفصّلة عنها، وتراجعها في أيام تواجده فيها، والّذي أدرجه في خبرها، فيما لا يخالفه فيه أحد، عندما قال: "(...) كان لهذه المملكة مردودا يبلغ ثلاثمائة ألف وحتى أربعمائة ألف دينار طوال العديد من السنين عندما كانت وهران تابعة لها، لكن نحو نصف هذا المبلغ كان ينفق على الأعراب وحراس المملكة، والباقي لأجور الجند والقادة وكبار موظفي الحاشية(...)"[١٢].

هذا السياق وموضوعه، حَمَلَ ما يهمنا فيما ضُمِّنَ له الرحالة في معرض غمزات حديثه الّذي يستوجب منا التشريح المنهجي لمادته المعرفية. ولذلك؛ فالناظر بتَمَعُّن لكلام الوزان، وما عَمَّمَهُ بالكلام عن موظفي الحاشية الّتي كانت تتقاضى نصف المبلغ المقدر حسبه بـ: ١٥٠٠ ألف دينار زياني ذهبي، في وقت كانت قد خسرت فيه تلمسان مورد ميناء وهران المهم إثر سقوطه في يد الإسبان[١٣]، وبالتالي يمكن هنا لحظ درجة الضرر المادي الّتي ستعود بالسلب على الموظّفين بالدرجة الأولى، خاصة وأنّهم يحصلون على مرتبات ثابتة وذات مصدر واحد، عكس بقية بعض أفراد المجتمع أصحاب المداخيل المختلفة غير المتأثرة بهذه الدوامة وعاصفتها الّتي تمثل بحق دلائل تطلعنا عن معاناة رجال الفكر آنذاك. كما وراح الوزان بعدها يصف ما يتَعلَّق بمَرَاتِبِ رجال القلم وتَمَوقِعِهِم المُمَيَّز داخل البلاط السلطاني، عندما اقتنصوا الدرجة الثانية في السلم الإداري بعد المَلِك الزّيّاني نفسه، فكتب يقول في التفاتته الخَاصَّة لهم[١٤]: "(...) والشخصية الثانية هو كبير الكتاب الّذي يحرر الرسائل والأجوبة باسم الملك(...)"[١٥].

من جانب آخر، نجد الرحالة غير غافل لثقافة المجتمع التلمساني في لباسه، لما أضاء بالكتابة ما سار عليه طلبة العلم في معتقداتهم، وميولاتهم الاجتماعيّة والثقافيّة، معطيًا بذلك للوعاء المعلوماتي الخاص برحلته خاصِّية الرِّحلات الإثنوغرافيّة[١٦]، المرتكزة على المشاهد المباشرة لسجايا السكان وعوائدهم، كما في قوله: "(...) ويلبس الطلبة ثيابا مناسبة لوضعيتهم، فالجبلي يلبس لباس أهل الجبل، والأعرابي لباس الأعراب، أما الأساتذة والقضاة والأئمة وغيرهم من الموظفين فلباسهم أحسن(...)"[١٧]. ضف أيضًا إلى ذلك، الوَقَار والرِّفْعَة اللّذين لم يهملهما الرجل لما حظي به الولي الصالح أبا مدين شعيب الغوث (ت. ٥٩٤هـ/١١٩٣م)[١٨]، دفين العُباد[١٩]، من قبل سكان المدينة، وما يحاذيها من أحواز[٢٠]، وفيما يلي مقتضبات تخص ما اكتفى بباب رمزيّته الروحيّة عنه بالنص: "(...) وبها دفن ولي كبير، ذو صيت شهير، يوجد ضريحه في

مسجد يصل الزائر إليه بعد نزول سلم من عدة درجات، ويعظم أهل تلمسان والبلاد المجاورة لها هذا الولي كثيرًا ويستغيثون به ويتصدقون عنده كثيرًا لوجه الله، ويسمى سيدي بومدين، وهناك أيضًا مدرسة جميلة جدًا(...)»[٢١].

بالموازاة مع ذلك، يلاحظ عليه كثرة إنتقاداته لرجال التصوف الدجاجلة ونُعُوته المتكرّرة في عيوبهم ونقائصهم[٢٢]، فالتطرف الصوفي المنتشر في كافة أرجاء العُدوة في تلك الفترة بالذات، لم يكن ليَغضَ البصر عنه، حينما كان مِعْوَلاً إنجر عنه الشيء الكبير في التأخر والنُكُوص العلميّ والفكريّ[٢٣]. وإذا تدبرنا تلك النفثات الّتي نزع فيها القلم الوزاني منزع كل عالم عايش بدايات العصر الحديث، ونقم على من حقق حوله الأتباع واستفاد من العامّة جراياتهم وعائداتهم بالحيلة الّتي لبست ثوب الصلاح[٢٤]، ما رأيناه ينحو إلى كشف سيرة رجل إدّعى العلم والولاية في صفحتين من أوراق تأليفه، اقتبسنا منها ما يفي بالغرض، عبر ما هو آتٍ: «(...) أصبح هو نفسه لا يعرف عدد رؤوس تلك الماشية، إذ لا يؤدي هو ولا ذووه أية إتاوة للملك ولا للأعراب، لأنه كما قلت يعد من الأولياء(...)»[٢٥].

وبإسهاب في الوصف، أردَفَ الوزان يحاول من خلاله تبيان المَهَابَة الدينية والهَيْبَة الزَّمَنِية الّتي ألبسها العامة لهذا الشيخ في اعتقادهم ببركاته، ووقُوعًا منهم لما إنتحله لنفسه، ما نصه: «(...) وظل السهل خاليًا تمامًا من السكان إلى أن جاء أحد النساك على طريقة أهل البلاد، فأقام به مع عدد من أتباعه الذين يرون فيه وليًا صالحًا، (...)، وتكاثر بقره وخيله وغنمه(...)، (...) وأنه يتوصل سنويًا من مختلف الجهات بمبلغ يتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف مثقال نذورا وصدقات من أناس مختلفين، لأن صيته انتشر في آسيا وإفريقيا بأكملها، وتزايد عدد مريديه إلى حد أن الذين يعيشون منهم معه يبلغ عددهم حوالي خمسمائة مريد، (...)، (...)»[٢٦].

هذا، وفي القرن ذاته، وفي السنوات نفسها، مع اختلاف متقدم نوعًا ما عن الرّحلة السابقة بحوالي ٣٠ سنة من الزمن؛ أي مع النصف الثاني للقرن ١٠هـ/١٦م، عرفت تلمسان زيارة إسبانيّة[٢٧] رسميّة، وبإيعاز من السلطتين الدينية والدنيوية[٢٨]، وضعت أساسًا في شكل تقرير، يهدف إلى دراسة مجتمع الإثنيات، ومن كل الجوانب في إفريقيا عامة[٢٩]، بما فيها الجانب الثقافي الّذي لم يفرد له صاحب الرّحلة لويس دل مارمول كاربخال (ت. ١٠١٩هـ/ ١٦١١م)[٣٠]، إلا حيزًا ضيِّقًا لمعالمه في مدينة تلمسان، بالرغم من معاصرته لفترة مهمة من تاريخها الانتقالي.

فاقتصر بذلك على بعض المدارس وأساتذتها بصفة مقتضبة وهزيلة في المعنى والمضمون، وحتَّى في الشكل العام الّذي كانت عليه هذه الحضرة العلميّة قبل وأثناء دخوله إليها، ولم يستوف في سبيل ذلك، إلا إشارات طفيفة وعابرة، إستقاها بطريقة مباشرة من «وصف إفريقيا» للحسن الوزان، حيث يقول في وصفه لمنشآتها المعماريّة والمرتبطة بأهل العلم ورجاله، ما يلي: «(...) ويوجد عبر المدينة كلها عدد كثير من المساجد الفخمة(...) وهي مجهزة بجميع ما يلزم(...) علاوة على خمس مدارس رئيسية مزخرفة من إنشاء بعض ملوك زناتة(...)»[٣١].

ويضيف دائمًا في مجال الوضع العلميّ والفكريّ التلمسانيّ، وبطريقة الانتقاء والاقتباس نفسها من كتاب الوزان، ما كان عليه حال طلبة العلم، والمصادر والموارد المالية الخاصة بهم، وبمؤسساتهم العلميّة، فقال: «(...) ولها دخل للإنفاق على عدد من الطلبة الّذين يقيمون بها(...)»[٣٢]. وبالوصف العرضي المُتَمِّن هذه المرة لما ذكره الحسن الوزان، وفي إلماعة مستفيضة عنه في عدد أساتذة المدارس وأوقات تدريسهم، ومصادر أجورهم الّتي كانوا يتقاضونها، ما خصّ له القول، فيما أورده بالذكر قائلاً: «(...) كما هناك عدة أساتذة في مختلف المدارس، يقومون بالتدريس كل يوم ويؤجرون من أوقاف هذه المؤسسات(...)»[٣٣].

وأثناء حديثه عن أنواع العلوم المُلَقَّنَة من طرف هؤلاء الأساتذة في شقيها العقليّ والنقليّ في تلك المدارس، يقول: «(...) ويدرسون على أساتيذ جميع العلوم الطبيعية والأشياء المتعلقة بدينهم(...)»[٣٤]. غير أن ما أشار له مارمول، وقبله الوزان عن العلوم العقلية، يجعل القارئ يظن من عبارة «يدرسون جميع العلوم الطبيعية»، على إن تلمسان كانت مبرِّزَة فيها في هذه الحقبة والّتي قبلها، والحقيقة غير ذلك، في وقت كانت فيه العناية بالعلوم الشرعيّة والعلوم المساعدة لها كاللّغة والنحو والبيان وغيرها، الشغل الشاغل للمراكز التعليميّة في الجزائر عامة، وتلمسان خاصّة بما فيها المدارس.

وقد أدى التركيز عليها إلى عدم الالتفات حول العلوم الأخرى، حيث يعدّ قصور لا ينطبق على تلمسان وحدها، بل كان حال كل العالم الإسلامي وقتذاك، ما أدى بدوره إلى انحطاط وضعية العلوم العقليّة به خلال العهد المدروس[٣٥]، وليس أدل على ذلك من قلة المشتغلين بالطب والكيمياء، الفلك والحساب، والجبر وغيرها...[٣٦].

ومن باب الموضوعة التاريخيّة، ومن دون الوقوع في مغبة الخطأ، فإنّه حتَّى ولو إنّ بعض المدرسين التلمسانيّين قد تطرقوا في مجالسهم لبعض العلوم العقليّة كالحساب، والفرائض، والفلك...، فإنّ دراستهم لها لم تكن إلا لاستغلالها في الحياة اليومية البسيطة، فالحساب كان للاعتماد عليه في التجارة والفرائض وتقسيم التركات، وكان الفلك يدرس لمعرفة الزوال وأوقات الصلاة. حتَّى إن عدم اهتمام الجزائريّين بهذه العلوم، هو الّذي جعل الرحالة الأوربيون ينتقدون التعليم في الجزائر[٣٧]، والّذي بلا شك، هو انتقاد يحمل شيء من الصواب[٣٨].

ثانيًا: مشاهد حيّة رصدها الرحالة المَقَّري لمدرسة ومكتبة أولاد الإمام[٣٩] بمدينته تلمسان

لا يختلجنا الريب، أنّ الإمام أبي العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت.١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)، خاتمة هذا الرعيل، رعيل ثمار أواخر العهد الزياني الّذين جمعوا بين سعة الحفظ وعمق الدراية، والإنتاج الأصيل، والتأثير البليغ في محدثي العصر وباقي العصور اللاحقة، لما كان أستاذ العصر، وقطب رحا المعارف، ومقصد الخاص والعام، واعترف له بمشيخة الجماعة في كافة العلوم والفنون، قد سدَّ بظهوره فراغًا كبيرًا كان وشيك الحدوث، إن لم يكن قد مد بأطنابه تماما ـ كما نبهنا على ذلك ـ منذ أواسط المائة العاشرة وما بعدها، وذلك لعوامل متنوعة ومتباينة، أهمّها فقدان المؤسسات العلميّة لرعاية الدولة بسبب التقلّبات السياسيّة الّتي عمّت المنطقة، عقب التضعضع الكبير الّذي أصاب أركان الدولة الزيانية[٤٠] وتمادى فيها منذ الربع الأخير من المائة التاسعة[٤١]؛ وطال ليله، حين تحولت تلمسان إلى سلطة الأتراك العثمانيين[٤٢] منذ عام (٩٢٥هـ/ ١٥١٧م)[٤٣].

ما أدّى ذلك كله إلى تدهور عام في المعارف، تبعًا لتدهور الحال في البلاد، وتعاقب الأحداث المأساويّة الّتي عصفت بالعلم ومراكزه العلميّة ومردوديتها، بعدما عرفت سُنين العِجَاف، وذلك ما رصده المقري وحقق من خلاله إجماعًا في التدوين مع نظرائه العلماء الرحالة، الّذين سيوافقونه الرأي بالمشاهدة والمعاينة المباشرة في القرنين المواليين.

ففي حدود عام ١٠١٠هـ الموافق لـ ١٦٠٠م[٤٤]، تاريخ زيارته إلى مدرسة أولاد الإمام في تلمسان مع الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن علي البهلول (ت. بعد ١٠١٠هـ/١٦٠٠م)[٤٥]، أحد العلماء الّذين طرقوا أبواب المدينة وأقبلوا عليها في تلك السنة مع مجموعة من العلماء والأعيان، فقدموا المدرسة وحضروها، وطافوا حولها، ولفتت انتباههم مكتبتها الّتي تحولت على قول المقري بلسان أبو الحسن البهلول، بعد تطرّقه لوصف المدرسة: «(...) ولما قدم علينا حضرة تلمسان، الفقيه سيدي علي بن محمد بن علي البهلول في حدود سنة ١٠١٠هـ، ذهب معنا في جملة من العلماء (...) إلى المدرسة الشهيرة الصيت بالمغرب المعروفة بمدرسة أولاد الإمام، (...)، (...) حتى وصلنا خزانة الكتب المشهورة فألفيناها بيابا خاوية على عروشها، وقد ملئت بالزبل، فقال سيدي علي المذكور مستجيرًا للجماعة:

خزانة للكتب مملوءة
بالزبل في مدرسة ابن الإمام[٤٦]

ولئن كانت هذه المشاهد تستظهر الخراب والتدهور في مثل هذه المدارس ومكتباتها الرّاقية في تلمسان، فكيف هو حال أعمدتها العلماء والشيوخ؛ هؤلاء الّذين خصّص لهم المقري جانبًا راعى من خلاله صَفوَتهم، مستعملاً كعادته ألفاظًا ذات دلالة معبرة لسيرهم ولمقاماتهم، ما يعكس ويناقض في الوقت ذاته لما جزم به بعض الرحالة الّذين سيأتي ذكرهم عن «خلو»[٤٧] المدينة من العلم والعلماء، الّذين كان من أمثلتهم ما نحن في صدد التعريج على مقتبسات من رحلته، وإذا كنا هنا لسنا بصدد الدراسة الشاملة لشخصيّة المقري وتأثيرها العلميّ في زمانه، لما تكفل بذلك أكثر، بعض الّذين تناولوها بالترجمة، وإنّما غرضنا من ذلك أن نقف في رحاب من أخذ عنهم العلم وخاصة التلمسانيّين منهم الّذين بزَقُوا له في أذنه[٤٨] ووثق لهم بالقلمِ وعِرفَانِهِ.

فكانت تقاييده مع من أدركهم من الشيوخ المَهَرَة بتلمسان، ومن علا كعبهم على غرار شيخه وعمه ومَشيَخَتِهِ، مُكِنِّيًا إياه بما ذكرته فهارس العلماء في لَبَّاتِها، فيكتب في ذلك: «(...) كسيدنا مفتي تلمسان عمنا سعيد[٤٩]، فكم نلنا معارفه قطفا(...)عن أشياخه من أهل فاس وغيرها»[٥٠]. وقال في جانب آخر، عن أحد شيوخه، ومضيفًا لمن لازمهم وشكل حولهم رباط العلم بالمدينة نفسها، مُحلِّيًا إياه بـ: «(...) أبو العباس سيدي أحمد ابن الشيخ الماجد الراكع الساجد الناسك البركة النخبة الأوحد، أبي عبد الله محمد ابن علماء الإسلام وأشراف الأنام، الّذين لأعلامهم الرفع بدار السلام، سادتنا المقربين علماء تلمسان وعظمائها(...)»[٥١].

ثالثًا: علم القراءات في تلمسان على ضوء رحلة ابن عابد الفاسي

شكلت تلمسان حلقة وصل ووسط بين عالمين اثنين، عُرِفَا بمدارس متنوعة في علم القراءات وفنونه، واستنادًا للفكرة نفسها، وفي إطار التَمَوقُع هذا، لا ضَيرَ هنا إنّ المنطقة سوف تمر عليها موجات من أنواع المدارس تلك، وهي الموجات الّتي طغى عليها اللّون المشهور بطريقة الإمامين ورش عن نافع، وعندما كانت الشهرة بهذه المثابة، لم يكن أبي يعقوب يوسف بن عابد الفاسي (ت. ١٠٨٨هـ/ ١٦٨٢م)، ليتجاوزها في تقاليد رحلته بالاستكشاف والتّدقيق. علمًا إنَّ ابن عابد الفاسي، لم يذكر تفصيلات حول علم القراءات في تلمسان ما يستفاد منه في هذا الباب، وإنما استفدنا ذلك من فقرة خَطَّها، وهو يصف حواشي المغرب الأقصى وما يجاوره من تلمسان شرقا، عمَّا دَلَفَ ودَأَبَ عليه سكان المنطقتين في قراءاتهم للقرآن الكريم، وبالتصريح المباشر، يقول في هذا الشأن: «(...) والغالب رواية ورش لأنها أول ما يستفتح قراء بلادنا من تلمسان إلى فاس ونواحيها بقراءة ورش لنافع(...)»(٥٢).

رابعًا: مكانة علماء تلمسان في حلقات السند(٥٣) عند الرحالة المغربيّ أبو سالم العياشي

تُقاس مكانة العلماء، ودرجات تَبريزِهم وتَمَكُّنِهِم في سائر العلوم، بثُبُتِهِم ومدى إقرارهم في حلقات وسلسلة الأخذ بالسند، فيتضح على أساس ذلك مستواهم ومستوى شيوخهم أو تلامذتهم، وهو ما أشار إليه الرحالة أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي (ت. ١٠٨٤هـ/١٦٧٩م)، عمّن لَقَطَ منهم أمهّات الفقه المالكي، وأخذ طريقه من التلمسانيّين، مستظهرًا لهم بطريقة المستفاد العلميّ المتواتر، في حدّ قوله: «(...) وهو الشهاب المقري فأخذه (يقصد الفقه المالكي) عن عمه عن إمام الفتوى بتلمسان، (...) أبي عثمان سعيد بن أحمد المقري، وهو أخذه عن العلامة أبي عبد الله محمد بن محمد التنسي، وهو أخذه عن أبيه الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي التلمساني»(٥٤). لتكن بذلك أَقْبَاس فيما حَازَه الرحالة، وغَنِمَ مُلكَ جَنْيه من طليعة فحول أمة العصرين، الزيانيّ والعثمانيّ بتلمسان، دون أن يَلِمَّ ولو إلمامة يسيرة بذكر الّذين شاركوه في الاستفادة منهم، ولو كان قد أطال النفس فيما ذكره لأفادنا، وأفاد التاريخ العلميّ والفكريّ لهذه المدرسة التلمسانيّة بفوائد لا تقدّر.

خامسًا: تمظهرات الحياة العلميّة والثقافيّة كما أدلى بها الشّاعر الرحالة أبو عبد الله الحاج محمد بن أحمد بن مسايب التلمسانيّ

وفي القرن (١٢هـ/١٨م)، صوّر الحاج محمد بن أحمد بن مسايب التلمسانيّ (ت. ١١٩٠هـ/ ١٧٦٨م)، مشاهداته في أبيات من الشعر، نقلها لنا من خلال رِحلاته الطويلة في مدن الجزائر العثمانيّة، والمغرب الأقصى، وتونس والمشرق. مضمّنا فيها للكثير من مواقف الزّجر الّتي تَنِمُّ على عدم خضوعه لسياسة الإدارة العثمانيّة، موظفًا أسلوب التلميح في صيغة تضمين، يستظهر من خلاله سطوة حكم عسكر الترك على تلمسان، مشبهًا إياهم بجيش الحب الّذي غزا الأوطان، فيقول:

سلطان الحب طغى وجار عني بجيش
كثرت في الحب تشواشي
من عيشه لاعيشه ولا في ظني نعيش
راني بالهجر راشي وهواها هز عراشي(٥٥)

شهادة أدلى بها الشاعر، تعكس عدم رضاه للحالة الّتي وصلت إليها العاصمة الملكيّة لبني عبد الواد، وكذلك السيّئة الّذي يعيشه السكان عامّة وأمثاله العلماء خاصة، تحت سيطرة وطغيان أصحاب القرار السياسي آنذاك. فلم يجد بدًا من أن يناهض ويهاجم بشعره حكومة وإدارة الدايات بعنف، ساخطًا على الأوضاع المترديّة، ممّا اضطره بعدما حصده من سياطهم، أن يفرّ من تلمسان بعيدًا عن الأوطان إلى المغرب الأقصى، حيث نال حُظوَة وشأنا كبيرين لدى أولاد وأحفاد السلطان العلوي إسماعيل (ت. ١١٣٩هـ/ ١٧٢٧م)(٥٦). كل ذلك ذكره ابن مسايب من خلال قصيدته: «أراد كيف فعل مالها اختار»، المعبّرة عن أوضاع تلمسان وما عاشته زمن الأتراك، لما قال:

هكذا قدر ربنا الحكيم كيف أراد
فعل بأحكامه فعل وقدرته
ما عليها مرتاح غني ولا عديم
وكل من هو فيها مشغول تعب
غافلة ما تتهت للفلك كيف دار
وين بني وطاس وفاق الفنون
والمرينيين وبنو زيان الجدار
عاندت بهم من جاء طالب الفنون
ما بقي فيها ما تعاند المدن(٥٧)

ويضيف قائلاً يصف تلمسان العروسة قبل دخول الأتراك إليها:

كانت عروسة والتاج فوق راسها
قاعدة في مجالس ماراها فساد(٥٨)

أما عن تداعيات الإدارة التركية بالمدينة وتعسفاتها، يقول:

هما سبب كل مشقة
والخلق صابر لبلاهم
ذا القوم ما معهم الشفقة
ما يرفقوا بمن والاهم
خربوا البلاد والمخزن زاد أعماها
بعد الهناء بعد الزهو تلمسان(٥٩)

سادسًا: ومضات من علم التوحيد في تلمسان على ما جاء في رحلة أبي علي الحسين بن محمد الورتلاني

ويطلعنا من جانبه أيضا العالم الرحالة أبو علي الحسين بن محمد الورتلاني (ت. ١١٩٣هـ/ ١٧٩٣م)، عن واقع علم التوحيد وأهميته لدى طلبة تلمسان ومكانته عندهم، التي جعلتهم لا يترددون في السؤال عن أصوله وتفاسيره فيما استشكل لديهم من أمر علوم دينهم من عند كل عالم من علماء الإسلام الرحالة الذين دخلوا مدينتهم على شاكلة الورتلاني الذي جاء في سطور مؤلفه «شرح نظم النورية في التوحيد»، أنهم طلبوا منه أثناء تواجده في تلمسان شرح ما يتعلق بقضية: «الصلاة والسلام على سيد العرب والعجم»، الواردة في كتاب مختصر الخراشي الذّي أخذ نصيبًا وافرًا من حلقات الدروس عند طلبة وعلماء هذه المدينة، على ما قيده الورتلاني بقوله: «(...) فلما قرر العلامة الكامل والفهامة الفاضل السيد الخرشي في شرحه لقول المختصر: والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم أشكل على بعض الأذهان بينهما، (...) ولما دخلت حضرة تلمسان لزيارة أبي مدين والشيخ السنوسي وغيرهما من الأحياء والأموات، أورد علي طلبته هذا فأجبتهم بما حصله آنف»(٦٠).

سابعًا: خراب مدينة تلمسان وجور حكامها، وتداعياته(٦١) على أهل العلم من منظور رحلة المكناسي

تتجلّى الأهميّة البالغة فيما رصده ابن عثمان المكناسي (ت. ١١٩٩هـ/١٧٩٩م)، عن تلمسان أثناء حلوله عليها على ما يظهر عام (١١٩٢هـ/١٧٨٤م)، في أنّه استعرض بالوصف المباشر، لجانب مؤلم عاشته هذه المدينة التابعة إداريا لبايلك الغرب، أحد البايليكات الثلاث خلال العهد العثماني المُسَيَّرَة من قبل البايات، والمعينين لهم ممثّلين مباشرين للمدن التّي تنضوي تحت إدارتهم، وهو ما ظهر فيهم من سوء المعاملة ما استحق الذكر عند المكناسي، ممَّا قاله فيما رآه عن سيرة أحد حكام تلمسان الأتراك(٦٢)، تنويهًا بدركات الإجرام، وتنبيها منه على ما تعاطوه في حق العامة الّذين في طليعتهم العلماء.

إذ ما سوف نَقِفُ أمامه في هذه اللَّقَطات، لأوثق شاهد على انعكاسات الحضور التركي وانتصابه في سماء وساحة الحضرة التلمسانيّة، حين جاء في أول كلامه عنها أنّها: «(...) مدينة كبيرة مشهورة، (...)، إلا أن الخراب استولى على كثير من أطرافها (...)، وزادها عمال الجور والظلم، (...)، فقد أخبرني بعض أصحابها كان يتردد إليها في قضاء أغراضنا، أنه رأى أهل البلد يشترون الأشياء من العطارين (...) بالزرع من قلة الدراهم بأيدي الناس، ومن قلة حياء حاكم البلد وكثرة حرصه وإذاية العامة، أن كل من يمر به حجاج بيت الله يقبض منهم شيئا معينا على أمتعتهم وحوائجهم (...)»(٦٣).

لكن وفي ظلّ المعاناة تلك، فإن نواميس العلم وأنواره لم تنطفئ في تلمسان حتَّى ذلك العهد، فعلى غرار علمائها الأحياء الّذين فضلوا البقاء في تلمسان لمواصلة نشاطهم العلميّ الخافت والصّامد، ذو صبغة التّواصل الداخليّ والخارجيّ خلال هذا القرن، أمثال الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله أيوب التلمساني (ت. ١١٧٢هـ/١٧٥٨م)(٦٤)، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله الزجّاي (ق ١٢هـ/ ١٨م)(٦٥)؛ وغيرهم...، فإنّ تلمسان العثمانيّة كانت تشتهر أيضا بنخبة أخرى حافظت على حركيتها كما يقال، رغم أنّها شهدت المَأْتَم في رجالها العلماء من النجباء ومدافنهم(٦٦)، الّتي غدت منارة شامخة(٦٧) ببريقها الوهّاج ليس في تلك الأزمان وحَسب، بل حتَّى اليوم.

لهذا، فإذا كان قدر العالم يُقدر بِمقدار ما خلّفه وراءه من أصداء، فإنَّ تلمسان وعمدائها الأولياء، قد تركوا وراءهم الدنيا تلهج بذكر أسمائهم(٦٨)، وهو ما نقتطفه بحق وشغف التدوين عند المكناسي، في أمر أقطاب الأمة التلمسانيّين، ما يرجعنا لزمن القوة والازدهار الثقافي، ملتمسين ذلك، فيما يلي: «(...) وخيمنا بظاهرها فتقضينا ضرورياتنا ولوازم السفر، وزرنا تربة الولي الصالح المستصرخ به في جميع الأقطار، القطب سيدي أبي مدين الغوث نفعنا الله تعالى ببركاته، وتربة الشيخ البركة القدوة الصالح سيدي محمد السنوسي(٦٩) نفعنا الله به»(٧٠).

وفي زاوية أخرى، وفي السياق نفسه، وعقب عودته الثانية لقبر أبا مدين شعيب، أثناء الرّجعة الّتي نسج فيها على منوال الأولى بالمقصد والتبرك، باشر الرّحالة يَخُطُّ القلم في وصف مدافن أولاد الإمام علماء تلمسان، بإشارة تغني اللبيب، عندما استعصى عليه إيجادهم، وفي الآتي عنده ذكرهم، بالقول: «(...) ثم توجهنا لزيارة القطب المشهور سيدي أبي مدين الغوث (...)، وقد كان بقي في خاطري المرة الأولى لما مررنا من هناك زيارة ابني الإمام أبوا زيد عبد الرحمان وأبوا موسى عيسى ابنا الأمام، فقد عاقني عن زيارتهما والبحث عليهما السفر والرفقة، (...)، ولما رجعت هذه المرة لم يكن لي هم غير زيارتهما، (...)، فبعثت لقاضي البلد (...) فبعث معي من أراني إياهما جزاه الله خيرا، وقبرهما على قارعة الطريق المارة من تلمسان إلى سيدي أبي مدين، دائر بها بناء قصير لا سقف له، فوقفنا عليهما وقرأنا لهما ما شاء لله من القرآن (...)»[٧١].

ثامنًا: أحوال أعلام الفكر والثقافة في تلمسان، كما قَيَّدَ أخبارهم المؤرّخ الرحالة أبو القاسم الزياني[٧٢] التلمسانيّ

أدرك أبو القاسم الزياني (ت. ١٢٤١هـ/١٨٣٦م)، وهو يصف شيخًا تلمسانيًا لمحه بالشَّوفِ المباشر، عندما قدم تلمسان وخَشَّ جامعها الكبير، وحضر مجلس هذا الشيخ الّذي أبْدَى على حسب الزياني يتغنى بمظاهره، وغير مراعٍ لحالته العلميّة المتردّية بالسّؤال، لدليل على مدى هشاشة مستوى بعض أصحاب المناصب الشرعية والعلمية في تلمسان العثمانيّة[٧٣] آنذاك، عندما قال فيه: «(...) ولما دخلت مدينة تلمسان التي لا يعرفني بها إنسان (...)، فكنت أقصد المسجد الجامع لعلي أجتمع برئيس، (...)، وأبحث عن الأعيان والأعلام، (...)، وكان يمر بي رجل بهي المنظر، نظيف الثياب صقيل المغفر، يلحظني شرزا، ويميل عني كبرا، يطرق البادي ولا يسلم، ويبخل بالجواب عن المتكلم، ويرى أنه من الطبقة العليا (...)، أحسبته من جهابذة الأعلام، (...)، فقصد الكرسي يميس ويتبختر، وصعد على أدراجه ينتثر، فدنوت منه شغفا بعادتي، (...)، فلم أجد في سفرته ثمرا منه التقط، ولا في روضته زهرا بقطافه أغتبط (...)»[٧٤].

ولما كان الزياني منصرفًا لتتبع هذه الشخصيّة، فقد إعتنى بالبحث عنه وحاول الوقوف على منصبه وعُلُو شَأنِه، فأضاف في ناحية أخرى من حديثه عنه، يقول: «(...) ولما سألت عن حاله ومنصبه، المغتر بجماله، قيل لي أنه قاضي المواريث، من محل الخبائث، فحينئذ قطعت نظري عن الأنس، (...)، وقصدت قرية أبي مدين بالعباد، (...)، وقلت مخاطبا لهذا المتكبر الذي هو بقسم الترائك يفتخر:

يا من تكبر فوق ما يناسبه
وظن أن خدمته الشميس والقمر
وتاه عجبًا وظن ببشاشته
وازور من قوة تخاله الحجر[٧٥]

ولأبي القاسم الزياني وصف آخر، يحوي في ثناياه مشاهد الفراغ العلميّ والفكريّ الّذي كانت تتخبّط فيه نخبة تلمسان وتستصرخه خلال الربع الأوّل من القرن الـ ١٣هـ/١٩م، فيما ساقه عن من نَهَلَ عنه العلم من هؤلاء، وقرأ عليه سماعًا، وسار إليه من كل أوْبٍ، في قوله فيهم: «(...) ولما انتقلت من تلمسان ونزلت بجوار أبي مدين بالعباد، (...) انهال علي طلبة البلاد من ذلك المصر، (...)، (...) وقصدونا للأنس والمذاكرة، (...)، وأتحفون بما عندهم من كتب الأخبار، وتواريخ من كان ببلدهم من الأحبار(...)». إلى أن يقول: «(...) وهؤلاء الطلبة الّذين بتلمسان ليس فيهم من يحسن منطقا ولا لغة ولا عربية لا صلاح اللسان، ولا يتعاطون الفروع الفقهية، والأحاديث النبوية»[٧٦].

ويختم كلامه عن المدينة قائلاً:

كانت تلمسان بالأعلام صائلة
وبالجياد ولم تربط بها الحمر
أصابها المسخ إذ عادت
مناصب العلم للأجلاف والخور
وكيف لا وجنود الترك حولكم
تسوقكم بعصى الخسف لا تذر[٧٧]

تاسعًا: تراجم علماء بيت[٧٨] اليبدري[٧٩] المتّاوي[٨٠] التلمسانيّ، من خلال رِحلات أبو راس الناصري المعسكريّ

أبو راس الناصري (ت. ١٢٣٨هـ/١٨٢٣م)، مِن بين مَن عُرِف مشرقًا ومغربًا، وعَرَف من الشيوخ ومن الحفظة ليس بالقليل، ومِمَّن ذَكر لنفسه وذُكر فيه الكثير النافع من أخباره وأحواله، وخاصّة في مستهل حياته، وما بَثَّهُ عن نفسه وعن أهل شيوخه، وغيرهم من سكان وطنه وعِلِّية العلماء والأكابر فيه، في الرِّحلات الّتي دونها في مؤلفه الموسوم بـ: «فتح الإله وَمنته في التحدثِ بفضل ربي ونعمته». فلا غرو بعد ذلك، أنّه سوف يغرف من مختلف فنون العلم وشعبه على يد علماء تلمسان الّتي وَجَّ

إليها هي أيضًا، وخصّ جزءً من رحلته لذكر علمائها الأحبار وبيوتاتهم، عندما تكلّم عنهم قائلاً: "(...) وأما علماؤها فأولاد ابن زاغو من مغراوة والعقابنة من قرية بالأندلس والمزارقة من عجيسة أهل جبل وسلات بإفريقية وأتى سلفهم لتلمسان، والمقارة من مقرة، قرية بمزاب أفريقية وأولاد الإمام، والشرفاء الأدارسة أبي عبد الله وأولاده والشيخ أحمد بالحاج المانوي وبنوه"[٨١].

وبشكل من الإفاضة منه في تحقيق نسب آل اليبدري التلمسانيّ، وذكر سِيَرهم، يقول أبو راس الناصري عن مؤسّس هذه الأسرة العلميّة، أبو العباس أحمد المنّاوي، ما نصه: "(...)ويبدو أنه مؤسس هذه الأسرة العلمية لأنها تنسب إليه"[٨٢]، وبنحو ذلك أشار لشيخه المباشر من هذه العِتْرَة الأسريّة، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن اليبدري التلمسانيّ (عاش في القرن ١٢هـ/١٨م)، بأنّه: "من نسل عالم المذاهب الأربعة الشيخ أحمد بن الحاج المانوي"[٨٣]، مثنّيًا إياه برسوخ قدمه، وفائدة زمانه، بما قاله عنه، أنّه: "وحيد الأوان وعلامة الزمان، وعلم تلمسان وعالِمها، وعامِلها، وقاضي الجماعة بها، شيخ الإسلام الحبر الهمام"[٨٤]. مضيفًا في اغتراب أستاذه هذا، وجملة الأسباب الّتي حَمَلَتهُ على ركوب هول الرّحلة ومشاقها، لما عُزِلَ عن القضاء والمناصب الّتي تُحمد وترتضي، وهمًا مَا سَمَت به هِمَّته، ونَمَت به رِفعَتُهُ إلى الرّحلة إلى المشرق ثانيًا، فكانت هجرته نهائيّة إلى الحرمين الشّريفين، وذلك ما عبّر عنه أبو راس النصري، ذاكرًا انصراف شيخه عن موطنه ومرتعِهِ، بقوله: "ونبذ تلمسان نبذا كليا، واتخذها وراءه ظهريا(...)، ولما قيل له، قال: قد طلقتها بتاتا، قائلاً: فما قلبي إليها يرجع ويسفر، فودعها وداع من لا يعود، وأعرض عن العشائر والأقارب والأهل، وأضرحة الجدود، ولحق بالحرمين الشريفين، وأخذ معه من المسجد أكثر من ألفين، فضلا عن الورق الوريق"[٨٥].

كما تعرَّض أبو راس لسليل ونجل شيخه السَّابق، والّذي يعدّ حسب قوله أيضًا، مِمَّن لازمهم بالأخذ واقتطاف ورده، وشرب رحيقه، سيدي حامد محمد بن عبد الرحمن التلمسانيّ، وفي وتحليته عنده، أنّه كان: "الكوكب الدري، شيخنا الشيخ اليبدري، الأنجد الماجد، ابن الشيخ سيدي حامد"[٨٦]. بهؤلاء فطاحل الشيوخ التلمسانيّين المتقنين إذن، وما يتّصل بهم من فروع العلم، استمرت تلمسان وقلبها العلميّ يخفق بسكون في زمانه ذلك، وبهذا كان لأبي راس التفوّق على الأقران، والتبريز على من عاصروه من حملة الألواح والأقلام، وبه استطاع أن يتبوَّأ مجالس العلم والعمل، وأن يَتَسنَّم كراسي المشيخة في أكثر العلوم والفنون، وبذلك شهد له عامّة من ترجموا له من المؤرّخين. على أنّنا نلمحه مع ذلك، حزينًا، آسيًا، على ما تتجلى به درجة الحضيض الّتي طَمَست شارة العلم في تلمسان، ولاحت فوقها سحابة سوداء، وطال بها المقام، إلى حين يأتي الفرج، في حدّ قوله: "(...) أما الآن فهي كأمس الدابر والميت القابر (...) فأقول: تلمسان وما أدراك بتلمسان (...)، وبحر العمارة، (...) المعمرة بالقراءة والتكبير والتهليل، والعلم الدقيق الأثيل، (...) فأصبحت خامدة الحس (...)، يا تلمسان اصبري على كمد الزمان وكده، (...) عسى الله أن يأتي بالفتح وأمر من عنده"[٨٧].

خَاتِمَةٌ

إنَّ ما أوردناه فيما تقدم معنا، والّذي لم يكن في أي حال من الأحوال يكفي لبناء صورة وافية عن الحياة الفكريّة والعلميّة في تلمسان العثمانيّة، ونظرًا لذلك، ومن خلال المعلومات القليلة والشَّحيحة الّتي قمنا بعرضها ثم تحليلها وتقصّيها من كتب أدب الرِّحلات والرِّحلات الجغرافية والاثنوغرافيّة خاصّةً، وقفنا على ما يمكن أن نوجه به هذا المسعى إلى مجموعة من الاستنتاجات ذات الدلائل الأصيلة، والقرائن التاريخيّة الهامّة، نقاطها في الآتي:

ـ أدّت التطوّرات الّتي مسَّت المؤسسات الثقافيّة في تلمسان منذ النصف الأول من القرن ١٠هـ/١٦م، إلى التأثير بشكل سلبي على الحركيّة الفكريّة، وعلى الرِّحلة العلميّة الوافدة إليها، الّتي تعطّلت وقلّت، كونها تُعَدُّ مرآة عاكسة للمستوى العلميّ في وُجْهَتِها، وهدفيتها، كان سببه مرتبط أساسًا بتلاحق الاضطرابات السياسيّة والعسكريّة، وانعدام الأمن وهواجسه الزمنيّة والمكانيّة، لتعيش المدينة في كَنَفِ ذلك، مرحلة استنزاف فكريّ عميق، لم يكن ليحدّ من الاجتهادات العلميّة الرحليَّة الّتي لاحَت مع النذر القليل من علمائها وغيرهم، راكبين هول الصِّعاب ومعايشين ومسايرين لواقعهم المرير، ومحافظين من جهة أخرى على الموروث التلمسانيّ وأصوله.

ـ أجمعت مدوَّنات هؤلاء الرحالة التلمسانيّين وغيرهم، على ما أضافه الحكم التركي العثمانيّ من جُرَعٍ هدَّامة على مستوى مراكز العلم والعلماء بالمدينة، والّتي كادت أن تقضي على النخبة التلمسانيّة قضاءً مبرمًا، لولا جُود القدر وحُسن صنيعه، الّذي لم يَعدِم حظُّ تلمسان العلميّ، حينما ورثت مجموعة من صُرُوح المدارس المُشيَّدة أغلبها بإبداع من قبل السلاطين الزيانيّين، خلال فترات متعاقبة من مدة حكمهم، كما تَغنَّى بدقة روعتها

ورونقها الحسن الوزان، في حين لم يكن باستطاعة من عَمَّرَها فيما بعد، أن يقف في وجه الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة المترديّة زمن الأتراك العثمانيّين، فيما أخبرنا به كل من الرحالتين الزيانيّ وأبو راس الناصري.

ـ نقل لنا الزياني في أبيات شعره المضمّنة في رحلته، مظاهر عُزوف النّخبة التلمسانيّة عن الاجتهاد الفكريّ، معلّلاً ذلك في هيئة الجلاد التركي وسيفه المقارع لكل عالم تلمسانيّ، وهو ما وقف عليه بالدليل مع رجل لم يكن أهلاً لمنصب حاز عليه بالجامع الكبير للمدينة، واصفًا إيَّاه بأوصافٍ أكَّدها من جانب آخر الرّحالة أبو راس النّاصري في خبره عن شيخه البيدري المنّاوي التلمسانيّ، الّذي ترك تلمسان، ونَفَرَ مِنهَا أثناء عزله عن إمامة جامعها الكبير وهو أهلاً له، في زمنٍ أصبحت المراتب العلميّة والدينية الحسّاسة تُباع وتُشتَرى في المدينة، أو تُسند إلى من إتَّبع طريق ولي نعمته من الأتراك.

ـ يعتبر من بقي من عمداء بيت البيدري المناوي في تلمسان، وبقية علماء المدينة الّذين تمّت الإشارة لهم في المتن ولم يهاجروا بلدهم، بمثابة الجذور من السواقي والجداول الفكريّة والعلميّة المتفرِّعة عن تيار نهر العصر الزياني الّذي لم يَجِف، وبقي ببريق رجاله العلماء محل استقطاب لوفود النذر القليل من الرّحالة العلماء، من مشارق الأرض ومغاربها، طيلة الفترة الحديثة في تلمسان العثمانيّة.

الهَوامِشُ:

(١) **العـــدوة**: مصـطلح يقصـد بـه في اللغـة المكـان المتباعـد، والمكان المرتفع، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم، بعد بسم الله الرحمن الرحيم: «إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » (الأنفال ٤٢)، بمعنى ما يلي المدينة وما يلي مكة، ولقد انتقل هذا المصطلح إلى بلاد المغارب عبر الكُتاب المشارقة على الأرجح، فأطلق على ضَفَّتي كل مجال يفصله مجرى مائي، فوجدت العُدوة المغربيّة التي يقصد بها تونس والمغرب والجزائر، والعدوة الأندلسيّة، لما يفصل بينهما من ماء البحر الأبيض المتوسط. ينظر حول الموضوع: المعلمة، (١٩٨٩م)، **قاموس مرتب على حروف الهجاء يحيط بالمعارف المتعلقة بمختلف الجوانب التاريخية والجغرافية والبشرية والحضارية للمغرب الأقصى**، (ج١٨)، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ص: ٦٠٠٦.

(٢) وممّا يؤكد احتفاظ تلمسان ببعض مآثرها خلال هذا القرن والّذي يليه، هو شدّ الرحال إليها من طرف بعض علماء المغرب الأقصى، الّذين أخذوا عن علمائها خلال هذه الفترة العصيبة من تاريخها كالشيخ عيسى بن محمد البطّوئي صاحب «**مطلب الفوز والفلاح**» **(ت ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م)**، والشيخ أحمد بن إبراهيم الرّاسي **(ت١٠٣٩هـ/١٦٣٠م)**، الّذي درس بها سنين عديدة، أما العلامة محمد اليستثني، فقد دخلها أثناء رحلته إلى المشرق عام **(٩٢٧هـ/١٥٢٨م)**، وسمع على الشيخين محمد بن موسى مفتي تلمسان وسعيد المنوئي. يُنظر: محمد حجي،(١٩٧٨م)، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، المغرب، ص: ٤٥٦.

(3) Barges Labbe, (1887), **Complément De L'Histoire Des Beni Zeiyene**, Ernest Leroux, Librairie éditeur, , P.P: 125 – 159.

(٤) أبو زكرياء يحيى ابن ابي بكر محمد بن محمد بن الحسن ابن خلدون (ت. ٧٨٠هـ/ ١٣٨٠م)، (١٩٠٣م)، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، (ج١)، مطبعة بيير مونتانا، الجزائر، ص ص: ١٤٠ ـ ١٦٤.

(٥) العباس بن إبراهيم السملالي، (١٩٩٣م)، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، (ج٣)، راجعه: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ص: ١٤٨.

(٦) إسماعيل العربي، (١٩٩٤م)، **دور المسلمين في تقدم الجغرافيا الوصفية والفلكية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص. ص: ٢٠٧ ـ ٢١٣.

(٧) محمد الحجوي، (١٩٣٥م)، **حياة الحسن بن محمد الوزان وآثاره**، المطبعة الاقتصادية، الرباط، ص ٨٩.

(٨) أبو علي الحسن بن محمد الوزان (كان حياً سنة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م)، (١٩٨٣م)، **وصف إفريقيا**، (ج٢)، ترجمة: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ص: ٢٠.

(٩) نفسه، (ج٢)، ص: ٢٠.

(١٠) نفسه، (ج٢)، ص: ٢١.

(١١) نفسه، (ج٢)، ص: ٢١.

(١٢) نفسه، (ج٢)، ص: ٢٣.

(13) Henri (L), 1958, **Histoire D'Oran Avant, Pendant Et Après La Domination Espagnole**, Typographie Adolphe Perrier éditeur, Oran, P.P :65 _ 75.

(١٤) تطبع رحلة أي رحالة بتكويناته وميولاته، فكل رحالة تكون رحلته ومضانها صورة تعكس ما عاشه وألّفه من بعد، وهذا قد حدث مع غير واحد منهم، على غرار ابن بطوطة الّتي طبعت رحلته بطابع التدقيق الإداري، عندما كان هو نفسه قاضيًا وبقية أفراد عائلته أيضًا، وذلك ما كان مع الوزان الّذي قيد بتركيز دقيق كل صغيرة وكبيرة تخصّ إدارة القصر السلطاني، لأنّها تعني له الكثير، حينما كان هو بذاته ووالده كاتبان للسلطان الوطاسي المعروف بالبرتغالي.
لتفاصيل أكثر يُنظر:
Rauchenberger(D),(1999), **Johannes Leo Der Afrikaner: Seine Beschreibung Des Raumes Zwischen Nil Und Niger Nach Dem Urtext**, Wiesbaden Harrassowitz.

(١٥) أبو علي الحسن بن محمد الوزان (كان حيًا سنة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م)، **مصدر سابق**، (ج٢)، ص: ٢١.

(١٦) **الرحلات الاثنوغرافيّة**: هي رِحلات تهتم بطبيعة عادات وتقاليد السكان وديانـاتهم، وغيرها من أساليب الحياة ومعايشـتها، وهنالك إختلاف بين الرّحال والرّحالة الإثنوجرافيّ، فالأوّل تشكل عنده الرحلة موضوع وهدف، عكس الرحالة الاثنوجرافيّ الّذي لا يهتمّ بالرّحلة بقدر اهتمامه بالناس الّذين تعايش معهم وعاينهم، فبذلك يكون الوعاء المعلوماتي للرّحلة الإثنوغرافيّة أغزر من الرّحلة العاديّة. للمزيد يُنظر: محمد فهيم حسين، (١٩٧٨م)، **أدب الرحلات**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص: ٣٠.

(١٧) أبو علي الحسن بن محمد الوزان (كان حيًا سنة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م)، **مصدر سابق**، (ج٢)، ص: ٢١.

(١٨) **أبو مدين شعيب الغوث بن حسين الأنصاري (ت ٥٩٤هـ/١١٩٣م)**: هو الإمام العارف بالله شعيب بن حسين الأنصاري، من مشاهير الصوفية، أصله من الأندلس، من حصن «**قطنيانة**» التابعة لإشبيلية، أقام بفاس طلبًا للعلم، ولكنّه سرعان ما استهواه التصوف الّذي تنقل في مرتبته حتّى بلغ مرتبة «**القطب والغوث**»، وعندما شد الرّحال إلى مكة بغية أداء فريضة الحج، لقي الصوفي الكبير عبد القادر الجيلاني كما قيل، وأتمّ على يده علوم التصوف، وبعد عودته إلى عُدوة المغرب إستقر بتلمسان واشتغل هناك بتعليم الصوفية، ونشر تعاليمه الّتي تخالف مذهبهم، فاستدعاه بسببها السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور إلى مراكش لمناقشته، ولبى الشيخ الدعوة، وفي طريقه إليه توفي قرب تلمسان ودفن بها، حيث ما يزال قبره مزارًا بها قامت حوله مدينة العباد. للمزيد حول سيرته يُنظر: عبد الحليم محمود، (١٩٨٥م)، **شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث حياته ومعراجه إلى الله**، دار المعارف، القاهرة، ص ص: ٢١ _ ٤٩.

(١٩) **العُباد**: جاء وصفها في كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان على الشكل التالي: «**(...) مدينة صغيرة شبه ربض، تقع في الجبل على بعد نحو ميل جنوب تلمسان، وهي كثيرة الازدهار وافرة السكان والصناع، ومعظمهم من الصباغين، وبها دفن ولي كبير، ذو صيت شهير، يوجد ضريحه في مسجد يصل الزائر إليه بعد نزول سلم من عدة درجات(...)**».
يُنظر: أبو علي الحسن بن محمد الوزان (كان حيًا سنة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م)، **مصدر سابق**، (ج٢)، ص: ٢٤.

(٢٠) **الحوز**: مصطلح جغرافي يعني الضاحية، أي ضواحي المدينة وخارجها، وما يحيط بها. ينظر: (المعلمة)، **مرجع سابق**، (ج١١)، ص: ٣٦٣٠.

(٢١) أبو علي الحسن بن محمد الوزان (كان حياً سنة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م)، **المصدر السابق**، (ج٢)، ص: ٢٣.

(٢٢) وجب الإشارة هنا، أن الوزان لا يتساهل أبدًا مع رجال التصوف الدجاجلة في سطور مؤلّفه، إذ يصفهم بأوصاف تنمُّ عن امتعاضه من تصرفاتهم، كونه قد عاصرهم، وعايش بالأخص فترة إنتشار هذه الطُرُقية التي زاغت عن سُنَّة المتصوفة المعتدلين، الأوائل منهم أم المتأخرين، لتتحوّل مع بداية القرن ١٠هـ/١٦م، إلى سلوكيات منحرفة، فبدأ يتقمّص دور الرجل الصالح كل شخص أراد تحقيق مصالحه وأغراضه تحت غطاء الدين وإدعاء الولاية، منتهزين الضعف والخوف الّذي أصبح هاجس مقلق يعيشه سكان العُدوة الذين رأو في هؤلاء المخلص والحامي لهم من الخطر الخارجي الممثل في التحرشات الأيبيرية منذ سقوط الأندلس سنة **١٤٩٢م**.
يُنظر حول الموضوع:
Luise (M), (1906), **Le Maroc Dans Les Premières Années Du XVI Siècle Tableau Géographique D'après Léon L'Africain**, Libraire Antiquaire, Rue De Buol, Paris.

(٢٣) لقد فشى واستشرى أمر هذه الظاهرة، وتفرّعت، وبالغت في الاعتقاد بشيخ الزّاوية وابتدعت الحضرة والأوراد وغيرها من الاعتقادات الصوفية، فانحط العلم والتعليم، وإكتفى بالقليل منه، وإنعدم التنافس فيه والإجتهاد، وصارت المعرفة والثقافة تضمحل يومًا بعد يوم، وسادت الخرافات، وقبل العقل هذا التدهور الفكريّ، حتَّى كاد أن يعمّ الجهل، والسبب الرئيسي_ هو الايمان بالأولياء وكراماتهم وتعدّد الطرق بين زاوية وأخرى، وتعصّب أفرادها لنصر_ طريقة شيخهم. ينظر: بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، (٢٠٠١م)، **الأدب العربي الجزائري عبر النصوص أو إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر من الفتح العربي إلى عصرنا**، (ج٢)، مؤسسة الطبع والإشهار، تلمسان، ص: ١٨٩.

(٢٤) أبو الحسن عبد الكريم الفكون (ت ١٠٧٠هـ/ ١٦٦٥م)، (١٩٨٧م)، **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم**

والولايـة، تقـديم وتحقيـق: سـعد اللـه أبي القاسـم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص ص: ١١٧ ـ ١٩٤.

(٢٥) أبو علي الحسـن بـن محمـد الـوزان (كـان حيـاً سـنة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م)، **مصدر سابق**، (ج٢)، ص: ٢٨.

(٢٦) نفسه، (ج٢)، ص: ٢٩.

(27) Edouard (A), **Encyclopédie Catholique Répertoire Universel Et Raisonne Des Sciences, Des Lettres, Des Art Et Des Métiers _ Une Bibliothèque Universelle Avec La Biographie Des Hommes Célères _**, (T.1), Parent Débarres Editeur De L'Histoire D'Angleterre, Paris, P: 463.

(28) Feller (F), (1839), **Dictionnaire Historique Des Hommes Qui Se Sont Fait Un Nom**, Nouvelle Edition, T 4, Bessancn Outhenin Chalandre Fils Editeur, Paris, P: 349.

(29) Thomas (D), (2014), Chesworth (J), Christian - Muslim Relations . **A Bibliographical History, Western Europe (1500-1600)**, (V.6) , Leiden , Boston. P .P: 283 _ ٢٩٢.

(٣٠) ولد لويس دل مـارمول كاربخـال في شـهر جـوان مـن سنة ١٥٢٠م، بمدينة غرناطة، وهـو ينتمـي إلى عائلـة ذات مركـز متوسط في إسبانيا، وبعد فترة قصيرة أصبحت أسرتـه مـن الطبقـة الأرسـتقراطيّة، عنـدما بـدأت تشـارك في شراء الأَراضي مـن الموريسـكيّين، لتقـوم بإعـادة بيعهـا بطريقَـة غـير شرعيـة خدمـة للعائلـة الملكيـة مـن جهـةٍ، وبهـدف الحصـول علـى إمتيـاز ذلـك مـن القصـر الملـكي مـن جهـةٍ أُخرى، وهذا ما فتح لها المجال بأَن تصبح من أكبر العـائلات البرجوازيّـة آنـذاك، ولقَـد بـدأ لـويس دل مـارمول كاربخـال مشواره العملـي وعمـره حـوالي أَحـد عشرة سنة، وذلـك عندما رافق شارلكان في حملته علـى تـونس منطلقـة مـن غرناطـة سنة ١٥٣٥م، ليُعَـد لـويس دل مـارمول بـذلك مـن العسكريين عندما خدم كجندي في جـيش شـارل الخـامس، الّذي استعاد تونس من خير الدين في السنة نفسها، ولما عاد شارلكان لإسبانيا ترك وراءه العديد من الجواسيس، مـن بينهم لوِيس دل مارمول كاربِخـال، ومـن هنـا تبـدأ وظيفتـه الرّحلية الجوسسيّة في الشـمال الإفريقـي، والّتـي امتـدت لمدة إثنتين وعشرون سنة. للمزيد ينظر:

Jean Louis (V), (1995), **Dictionnaire Des Personnages Historiques**, Editions De Fallois Fischer Taschebruch Verlag, G M B H, P. P: 841.٨٤٨ _

(٣١) لـوس دل مـارمول كاربخـال (ت ١٠١٩هـ/ ١٦١١م)، (١٩٨٤م)، **إفريقيا**، (ج٢)، ترجمـة: محمـد حجـي، الجمعيـة المغربيـة للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف، الرباط، ص: ٢٩٨.

(٣٢) نفسه، (ج٢)، ص: ٢٩٨.

(٣٣) نفسه، (ج٢)، ص: ٣٠٠.

(٣٤) نفسه، (ج٢)، ص: ٢٩٨.

(٣٥) سعد الله أبو القاسم، (١٩٩٨م)، **تاريخ الجزائر الثقافي ١٥٠٠ ـ ١٩٣٠**، (ج١)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص: ٣٤٨.

(36) Mostefa (Kh), (2013), **La Médecine en Algerie Au Cours De La Période Ottomane (XVIE _ XIXE Siècle)**, Houma éditions, Alger, P.P: 61 _63.

(٣٧) وذلك ما لاحظه الرّحالـة الإنجليـزي الـدكتور شـو « Shaw »، الّـذي زار الجزائـر وتلمسـان، وقـال عـن وضـعية العلـوم العقليّـة فيهـا، بـأنّ أي علـم عقلـيّ لم يأخـذ بدرجـة مـن الكمال، مؤكّدًا على أن هذه الحالـة ليسـت ناجمـة عـن قلـة الأشـخاص الّـذين يمارسـون الطب أو أي مـن المهـن الّتـي تتطلـب بعـض المعرفـة بـالعلوم الدقيقـة، وأنّ كـل مـا يفعلونه هو من قبيل العادة والتعوّد، معتمدين في ذلك على ذاكرتهم القويّة وذكائهم الفذ، وفيما يخصّ الطب أكد على تدهور وضعيّته في الجزائر كما في بقية الولايات العثمانيّة، مع إعترافه بقدرة بعض الأطباء الجزائريّين في المعالجة ببعض الأعشاب، فخلص إلى القول إلى أن: « (...) **الطب لم يكن يسير وفق قوانين معينة أو مدارس، بل كان يعتمد على ما ألفه العرف (...)**». ينظر بالتفصيل:

Thomas (S), (1830), **voyage Dans La Régence D'Alger**, Chez Marlin éditeur, Paris, P: 48.

(٣٨) فوزيـة لـزغم، (دت)، **الإجـازات العلميـة لعلـماء الجزائـر العثمانيـة ١٥٢٠م ـــ ١٨٣٠م**، مخـبر مخطوطـات الحضـارة الاسلامية في شمال إفريقيا، وهران، ص: ٧٣.

(٣٩) **مدرسة أولاد الإمام**: يعود تأسيس هذه المدرسة إلى أبي حمو الزياني الأوّل، تكريما منه لفقيه تلمسان الأشهر أبـو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن الإمام، الّذي بنى له مدرسة داخل باب كشوط عرفت بمدرسة ابن الإمـام، أيـن تولى فيها التدريس والإفتاء مع أخيه، ويقـول ابـن خلـدون عن ظروف وهدف تأسيس هذه المدرسة، ما نصه: «(...) **ثم وفدا بعد مهلك يوسف بـن يعقـوب علـى أبي زيـان وأبي حمو مع عمال بني مرين وقوادهم بمليانة(...) فأشاد أبي حمو بمكانهما من العلم(...) ووقع ذلك من أبي حمو أبلغ المواقـع حتـى إذا اسـتقل بـالأمر ابتنـى المدرسـة بناحيـة المطهر من تلمسان لطلبة العلم، وابتنى لها دارين عـلى جانبهـا وجعـل لهـما التـدريس فيهـا في إيـوانين معـدين لذلك. واختصها بالفتيا والشورى(...)**». حول هذه المدرسـة ينظر: أبو زيد عبد الرحمن بن محمـد بـن خلـدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٣م)، (٢٠٠٠)، **ديـوان المبتـدأ والخـبر في تـاريخ العـرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، (ج٧)، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بـيروت، ص ص: ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٤٠) محمـد بـن رمضـان شـاوش،(١٩٩٥م)، **باقـة السوسـان في التعريـف بحـاضرة تلمسـان**، ديـوان المطبوعـات الجامعيـة، الجزائر، ص: ٢٢٩ ـ ٢٣٥.

(41) Labbe (B), (1859), **Tlemcen Ancienne Capitale Du Royaume De Ce Nom**, Souvenir Dun Voyage, Challamel Aine Libaire, Paris, P .P: 78 _١٥١ .

(٤٢) سعد الله أبو القاسم ، **مرجع سابق**، ص: ٤٢٤.

(43) Adrien (B), (1860), **Le Pégnon D'alger Ou Les Origines Du Gouvernement Turc En Algérie**, Challamel, Libraire, Paris, P.P: 58 ـ ٧٤.

(٤٤) أبو عبد الله محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد الحموي المُحِبِّي (ت ١١١١هـ/ ١٧١١م)، (دت)، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، (ج١)، طبعة حجرية، الرباط، ص: ٣٠٣.

(٤٥) **أبو الحسن علي بن محمد بن علي البهلول (ت بعد ١٠١٠هـ/١٦٠٠م)**: عالم زاهد، له باع طويل في الشعر والقريض، من نسل المجاجيّين الّذين ينتهي نسبهم إلى شرفاء «**بني حمود**» غرناطة، كانت زاويتهم بمجاجة مقصدًا للتعلّم والتّعليم وقضاء الحوائج. ينظر: عادل نويهض، (١٩٨٠م)، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، مؤسسة نويهض للثقافة والتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ص: ٢٨٦. عبد الكريم الفكون، **مصدر سابق**، ص ص: ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٤٦) أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)، (٢٠٠٤م)، **رحلة المقري إلى المغرب والمشرق**، تحقيق: بن عمر محمد، مكتبة الرشاد، الجزائر، ص: ١٤٠.

(٤٧) جعلت كلمة «**خلو**»، بين شولتين لتبيين موقفنا المتحفّظ والمعارض إلى حدّ ما، لما جاء اعتقادًا عند الدارسين والباحثين في الحقل الثقافي خلال العهد العثمانيّ، وما شاع بينهم من كتابات توحي بفراغ مدينة تلمسان من أي جوٍّ علميّ أو فكريّ يعتدّ به بالبحث في هذا المجال، واستعمال الشولتين معناه وضع مسافة فكريّة مع المصطلح أو عبارة ما.... تستدي المعارضة على إختلاف مستوياتها في بناء الأفكار التاريخانيّة « L'historiographie».

(٤٨) **أسلوب البزق في الأذن**: تعبير مجازي وأسلوب في التّعليم، وأوّل من وظّفه في طيّات تأليفه العالم والمؤرّخ التلمسانيّ ابن مريم الملّيتي في «**بستانه**» وهو يترجم لأعلام تلمسان، وتفسير هذا الأسلوب هو أن يأخذ الطالب العلم من نفثات فمِ شيخه مباشرة، فيلازمه أوقاتًا طويلةً وجهًا لوجه، لا بالإجازة العابرة أو المكتوبة، يُراجَع:

Abū Abdallahe Mohamed Ibn Mohamed Ibn Ahmad El Cherifs El Tilimsānī ـ El Melity Ele Madyouni ــ Ibn Mariam, (1910), **El Bostan ou Jardin Des Biographies Des Saints Et Savants De Tlemcen**, Tra Par: F.Provenzali, Imprimerie Orientale Fontana Frères, Alger.

(٤٩) **أبو عثمان سعيد بن أحمد المقري التلمساني (توفي حوالي ١٠١١هـ/ ١٦١١م)**: هو سعيد بن أحمد بن أبي يحيى بن عبد الرحمان بن بلعيش المقري، تلقى العلوم الأولى وهو صبي، فحفظ القرآن الكريم، وألم على مصنفات النحويين من «**أجرومية**» و«**ألفية**» وغيرهما، ثم راح ينهل من مختلف صنوف المعرفة وفنون العلم، حتّى بلغ شأنا عظيما في الدرس والتّحصيل، ولا سيما في التّوحيد، والفقه، والعربيّة، والأمثال، وأيام العرب، كما برز في العلوم العقليّة من حساب، ومنطق، وفرائض، وهندسة، وطب، وتنجيم، وفلاحة...، توفي حوالي سنة ١٠١١هـ/ ١٦١١م. يُنظر: محمد مرتاض، ٢٠٠٤، **من أعلام تلمسان ــ مقاربة تاريخية فنية** ــ، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ص: 285 - ٢٨٨.

(٥٠) أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت.١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)، **مصدر سابق**، ص: ١٩٣.

(٥١) نفسه، ص: ١٤٨.

(٥٢) أبو يعقوب يوسف بن عابد بن محمد الحسني الفاسي (ت. ١٠٨٨هـ/ ١٦٨٢م)، (١٩٩٣م)، **رحلة بن عابد الفاسي من المغرب إلى حضرموت**، تحقيق ونشر وتقديم وتعليق: إبراهيم السامرائي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص: ٦٠.

(٥٣) **السند**: هو تسلسل الرواية من المحدث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد توسّع فيه العلماء حتّى جعلوه لكل علم بل ولكل كتاب سند يصلهم بواضع العلم أو بمؤلف الكتاب. لتفاصيل أكثر ينظر: على زوين، (١٩٨٦م)، **معجم المصطلحات توثيق الحديث**، مكتبة النهضة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، ص: ١٣.

(٥٤) أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي (ت. ١٠٨٤هـ/١٦٧٩م)، (٢٠٠٦م)، **ماء الموائد والمعروف بـ: الرحلة العياشية إلى الديار النورانية ١٦٦١م ــ ١٦٦٢م**، (ج٢)، تح وتق: سعيد الفاضلي، دار السويدي للنشر والتوزيع، المملكة العربية المتحدة، ص: ٢٦٦.

(٥٥) أبو عبد الله الحاج محمد بن أحمد إبن مسايب التلمساني (ت. ١١٩٠هـ/ ١٧٦٨م)، (١٩٨٦م)، **ديوانه**، إعداد وتقديم: السحنوني الحفناوي أمقران وسيفاوي أسماء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص: ١١٨.

(٥٦) نفسه، ص: ١٩.

(٥٧) نفسه، ص: ٤١.

(٥٨) نفسه، ص: ٤١.

(٥٩) نفسه، ص: ٤١.

(٦٠) الحسين بن محمد الورتلاني (ت. ١١٩٣هـ/ ١٧٩٣م)، **شرح نظم النورية في التوحيد**، تحقيق ودراسة: برمان البشير، (د.م)، (د.ت)، ص: ١٤٠.

(٦١) تواصلت حركة الهجرة للعلماء من تلمسان، وبغزارة إبان القرن ١١هـ/١٧م، والعقود الأولى من الّذي يليه، بسبب سياسة الأتراك العثمانيّين الّتي ضيقت عليهم إجتهاداتهم من جهة، وعدم حصولهم على الإهتمام الواجب توفيره لهم من قبل هؤلاء السّاسة، وهو الّذي كان مع العديد من العلماء الّذين شدوا الرّحال إلى المغرب الأقصى وتونس أو مصر، كـ: **العالم عمار بن عبد الرحمن التلمساني (ت ١١٢٨هـ/١٧١١م)**، وهجرته للمغرب الأقصى ثم مصر، و**أبو العباس أحمد بن ثابت الشريف التلمساني (ت ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م)**، الّذي كانت وجهته تونس، و**أبو عبد الله محمد بن يحيى بن أبي الفتوح الشريف الحساني التلمساني (ت ١١١٢هـ/١٧٠٠م)**، الّذي أخذ من درعة ثم مصر مثوى له: يُنظر حول الموضوع: عبد الحي عبد الله الكبير

الكتاني،(١٩٨٢م)، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، (ج٢)، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ص: ٩.

(٦٢) تجدر الإشارة هنا، أنّه لم تكن وحدها معاملة حكام تلمسان السبب الرئيسي على ما يبدو في الحالة المزرية الّتي عرفتها المدينة في هذه الفترة، إذ تشير مصادر محليّة لأسباب أخرى طبيعية أكثر تأثير على غرار القحط والمجاعة حتّى أكل أهل تلمسان لحم الميتة والدم، على قول عبد القادر الوهراني مؤرخ بايات وهران، كما وحدث في أيام حكم محمد بن عثمان الباي المشهور بحبه للعلم والعلماء وتقريبهم إليه، إهتمام ولو ظرفيًا كان، لم يكن ليتجسد على أرض الواقع ويغرس مغرسًا دائمًا في ظل الطاعون والزلزال اللذان لم يحدث مثلهما قطّ أيام حكم هذا الباي، لتفاصل أكثر ينظر: أبو عبد الله مسلم بن عبد القادر الوهراني الحميدي الزايري (ت ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م)، (١٩٧٤م)، **أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر أو تاريخ بايات وهران المتأخر**، تحقيق: بونار رابح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص: ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٦٣) أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي المسطاطي (ت. ١١٩٩هـ/ ١٧٩٩م)، (٢٠٠٣م)، **إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبره الحبيب**، تق وتح: بوكبوط محمد، دار السويد للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، ص: ٣٣١.

(٦٤) **أبو عبد الله محمد بن عبد الله أيوب المنور التلمسانيّ (ت. ١١٧٢هـ/١٧٥٨م)**: عالم تلمسانيّ الأصل، أخذ عن علماء الجزائر والمغرب الأقصى، ورحل للمشرق واستقر بمصر، ودرس برواق المغاربة في الأزهر، وحصل له صيت هناك. ينظر: الحسين بن محمد الورتلاني (ت ١١٩٣هـ/ ١٧٩٣م)، (٢٠٠٦م)، **الرحلة الورتلانية والموسومة بـ: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**، (ج٢)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص ص: ٣٠٤ ـ ٣٠٦.

(٦٥) **أبو عبد الله محمد بن عبد الله الزجاي (ق ١٢هـ/ ١٨م)**: كان معاصرًا للباي محمد الكبير، وتابعًا لطريقة الإمام **«الجنيد»** في فاس، ولمّا استولى الحكام الأتراك على أوقاف مدرستيّ تلمسان، كتب الزجّاي إلى الباي محمد الكبير في ذلك فأجابه إلى طلبه وأعاد إليهما الأوقاف. وقد ألف الزجاي كتب عدّة في التصوف منها: **«المرائي المكية في آداب الطريق والأدعية»، و« شرح لأسماء الله الحسنى».** ينظر: عبد المنعم الحسني القاسمي، (٢٠٠٥م)، **أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى**، دار الخليل القاسمي، الجزائر، ص ص: ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

(66) Edmond (D), (1909), **La Société Musulmane Du Maghreb Magie & Religion Dans L'afrique Du Nord**, Imprimeur - Libraire - éditeur, Alger, P.P: 58 _ 89.

(67) Victor (B), (1857), **Les Saints De L'Algérie**, Imprimerie Marc Aurel, Éditeur, Valence, P .P: 57 _ 90.

(68) Louis (R), (1884), **Marabouts Et Khouans Étude Sur L'islam En Algérie**, Adolphe Jourdan, Libraire-Éditeur, Alger, P.P: 167 _ ٢٣٤.

(٦٩) **أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي التلمساني (ت. ٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م)**: من مشايخ المائة التاسعة، له تآليف في العقائد الخمس وشروحاتها، وهي: **«المقدمة وصغرى الصغرى والوسطى والكبرى وشرح قصيدة الجزائري»،** كان زاهدا في الدنيا على حسب ما ذكره علماء تلمسان. ينظر بالتفصيل: أبو القاسم محمد بن عسكر الحسيني الشفشاوني (ت. ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م)، (١٩٧٧م)، **دوحة الناشر بمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تح: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ص: ١٢١ ـ ١٢٢.

(٧٠) أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي المسطاطي (ت. ١١٩٩هـ/ ١٧٩٩م)، مصدر سابق، ص: ٣٠١.

(٧١) نفسه، ص ص: ٣٣٣ ـ ٣٣٥.

(٧٢) يرجع النسب الأصلي لأبي القاسم الزياني إلى الأسرة الزيانية الّتي حكمت تلمسان ثم إنتقل بقية أفرادها إلى المغرب الأقصى، عقب أفول نجم الزيانيّين بتلمسان على إثر انهزامهم نهائيا على يد الأتراك العثمانيين عشية دخول حسن بن خير الدين أمير الجزائر بعسكر الترك للمدينة المذكورة؛ ففر أميرها أحمد بن عبد الله الزياني وأعيانها لدبدو، وبه إنقضى أمر بني زيان الّذين استوطنوا حواضر المغرب الأقصى وبرز فيهم عدة علماء، تقدم فيهم الفقيه ومؤرخ الدولة الاسماعيليّة وكاتبها الأديب أبي القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزياني، والّذي قام بعدة رحِلات منها إلى تلمسان، لما نشب بينه وبين سلطان المغرب نزاع، وهذا ما يدل على لجوئه لموطنه الأصلي، توفي الزياني عند طلوع العصر من يوم الأحد رابع رجب عام ١٢٤١هـ/ ١٨٣٦م، ودفن بالمباح المتصل بقبة زاوية سيدي أحمد بن ناصر الدرعي بوطا فرقاشة من حومة السياج من طالعة فاس. ينظر حول النسب الحقيقي للزياني: عبد الكبير بن هاشم الكتاني (ت. ١٣٥٠هـ/ ١٩٥٠م)، (٢٠٠٢م)، **زهرة الآس في بيوتات أهل فاس**، (ج١)، تحقيق: الكتاني علي بن منصور، منشورات مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص: ٤٨٠ ـ ٤٨١.

(٧٣) هي ميزة العصر، وكم يفيض كتاب عبد الكريم الفكون بذكر نماذج لهؤلاء وفيمن تعاطى منهم المناصب الشرعيّة لادعائهم العلم، وهم في كل ما ادّعوا ما لا يصح لهم خطبة ولا نحوها. ينظر: عبد الكريم الفكون، **مصدر سابق**، ص: ٦٣ ـ ١١٦.

(٧٤) أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزياني التلمساني (ت ١٢٤١هـ/ ١٨٣٦)، (١٩٩١م)، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برًا وبحرًا، أو الرحلة الربانية والروضة السلمانية أو ترجمانة الدنيا وما فيها من الأمصار**، تعليق: عبد الكريم الفيلالي، مطبعة المعارف، الرباط، ص: ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٧٥) نفسه، ص: ١٤٠.
(٧٦) نفسه، ص: ١٤٢ _ ١٤٣ .
(٧٧) نفسه، ص: ١٤٢ _ ١٤٣ .
(٧٨) **بيت بن الحاج اليبدري المناوي**: يرجع نسبهم إلى قبيلة «**بني ورنيد**» البربرية الزناتية، ويبدو من كلام أبو راس النّاصري أن العالم **أبو العباس أحمد بن الحاج اليبدري (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)**، هو مؤسس هذه الأسرة العلمية، لأنها تنسب إليه، إذ يشير إليهم أبو راس بقوله: «(...) **ويبدو أنه مؤسس هذه الأسرة العلمية لأنها تنسب إليه، إذ يشير إليهم أبو راس بالشيخ أحمد المانوي وبنوه**(...)»، الّذي تصدى للتدريس في تلمسان فتخرج عليه جماعة كابن أخته الحاج بن سعيد، ومن أعلام هذه العِترَة الأسريّة نذكر: **أبو عبد الله محمد الحاج المناوي ت ٩٠٥هـ/١٥٤٨م**، المتصدى هو الآخر للتّدريس بتلمسان، فنهل من علمه أناس كثيرون، **وأبي عبد الله محمد أمقران بن أبي عبد الله بن الحاج، وأخوه حدو بن الحاج (ت٩٩٨هـ/١٥٨٩م)**، والشيخ **أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن اليبدري التلمساني (القرن ١٢هـ/١٨م)** الّذي أشار إليه تلميذه أبو راس في رحلته «**فتح الإله**» قائلاً بأنّه: «**من نسل عالم المذاهب الأربعة الشيخ أحمد بن الحاج المناوي**»، ومحليًّا إيَّاه بـ: «**وحيد الأوان وعلامة الزمان**»، وبأنه: «**علم تلمسان وعالمها، وعاملها، وقاضي الجماعة بها، شيخ الإسلام الحبر الهمام**»، وكذا **أبي عبد الله محمد بن سعد التلمساني (ت ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م)**، الّذي نشأ في تلمسان وتلقى تعليمه على يد شيوخها (...)». وهي الآصرة العلميّة الّتي تفرّعت عنها بيوتات علميّة تحت أسماء مختلفة في المغرب الأقصى: أهمّها: «**بيت ابن سعيد**». لتفاصيل أكثر ينظر: أبو عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد المديوني بن مريم التلمساني (ت ١٠١٤هـ/ ١٦١٤م)، (١٩٠٨م)، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، مراجعة: إبن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، ص: ٦٢، أبو راس الناصر محمد بن أحمد البرجي (ت ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م)، (١٩٨٦م)، فتح الإله وَمنته في التحدثِ بفضل ربي ونعمته، تحقيق: الجزائري محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص: ٢٩، ١٠٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١.
(٧٩) نسبة إلى «**وادي يبدر**»، وهي قرية واقعة بالجنوب الشرقي من تلمسان، في إقليم أهل الواد التابع لبلدية عين فزّة على الطريق الثانوي رقم ١١١ الّذي يربط قرية «**الشولي**» بقرية «**سبدو**». ينظر بالتفصيل: محمد بن رمضان شاوش، **مرجع سابق**، ص: ٤٤٤.
(٨٠) **المناوي**: نسبة إلى وادي «**مينا**»، وهو واد ينبع من الجبل الأخضر الواقع شرقي «**فرندة**»، ويصب في وادي الشلف، وعلى ضفافه بني الرومان مدينة شيدت بجانب آثارها لاحقا مدينة غليزان. ينظر: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد إبن خلدون (ت. ٨٠٨هـ/ ١٤٠٣م)، (ج٧)، **مصدر سابق**، ص، ص: ٤٤، ٦٥٩.
(٨١) أبو راس الناصر محمد بن أحمد البرجي (ت ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م)، **مصدر سابق**، ص: ١٠٨.
(٨٢) نفسه، ص: ١٠٨.
(٨٣) نفسه، ص: ١٠٨.
(٨٤) نفسه، ص: ١٨١.
(٨٥) نفسه، ص: ٤٩ _ ٥٠.
(٨٦) نفسه، ص: ٥٠.
(٨٧) نفسه، ص: ١٤٨.